الفصل الخامس [١٠٩]

"الاستدامة"، قيمة
La "durabilité", une valeur

١ – "استدامة" الحاضر
1. la "durabilité" du present

ينقل إلينا الإغريق أنه كان في البدء قصة الإله كرونوس Chronos، إله الزمن الذي يقال إنه ابتلع أبناءه لأن أحد المنجمين تنبأ أن أحدهم سيطيح به عن عرشه، فعل ذلك ليحتفظ بسلطته اللازمنية، بدون مبادرة ولا مسؤولية، وهذا ما يمكن أن نصفه بأنه البرمجة الفائقة. إنها إذنْ قصة سقوط ضرب من الزمنية التي ترفض التغاير، وتنكر المستقبل، وتغلق المنافذ أمام نسق الزمن نفسه، ترفض أن تصبح قيمة التطور قيمة جديدة ومستدامة بوصفها قوة حياة وتجدد العالم والكائنات. وفي نهاية المطاف ينبجس العالم والكائنات التي تسكنه لأن أحد أبناء كرونوس أنقذته أمه، آلهة الأرض التي أخفته في مغارة أنيسة، يتوافر فيها الغذاء. ذلك الطفل هو زيوس الخالد الذي سيصبح منذ تلك اللحظة سيد العالم، والبشر وتاريخهم. يقيد الزمنية التي تنكر المستقبل، ويفتح الباب على مصراعيه لما هو غير متوقع، وللتطور. وبذلك يصبح الزمن حاضراً، حاضراً يستمر لأنه ينطلق من حدث الإنجاب، حدث الولادة، وما هو غير متوقع، وانبثاق الحياة.

ويمتلك **الإغريق** كلمة أخرى أو مفهوماً آخر هو aîon يستخدمونه لتحديد ماهية التيار الحيوي، وبالتالي استمرارية الحياة ومصير الإنسان، ومدى كثافة جزء من الزمن. وهي كلمة يمكن أن نترجمها باستمرارية، ولكن لها أيضاً علاقة بالخلود، لأن **أفلاطون** يقول: إنه يستخدمها للحديث عن الحياة الإلهية، وليس عن الحياة البشرية.

وبذلك يكون لدى الإغريق نمطان من الزمن، نمط العالم، الفيزيائي والقابل للعمليات الرياضية، وهو نمط يندرج تحته الزمن الكوني، مرتبط بحركات الأفلاك التي يعرفها **أرسطو** بأنها تتابع من اللحظات، ذلك الحاضر الذي يستمر يتبع بعضه بعضه، وزمن الحياة والاستمرار الذي يسير خطياً من نقطة بداية إلى نقطة نهاية.

وانتقل هذا النمط الثاني من الزمن إلى اللاتينية aevum فأصبح في مسار تاريخ الفكر الغربي زمناً وسيطاً بين الزمن والخلود، ضامنا للنسق وللربط، ودعامة لأشياء العالم وكائناته، مخصصاً لتجسيد وقائع لها بداية وليس لها نهاية. وبذلك أسهم في إيجاد مفهوم مزدوج هو في الوقت نفسه مفهوم "الاستدامة" كما هو موجود في عبارة "تنمية مستدامة"، ولكنه أيضاً مفهوم ما سيسمى "الاستمرارية" في عبارة "التنمية المستمرة".

وإن أول إنسان وعى تنوع العالم هو بلا شك **هيرودوت** Hérodote، مؤلف كتاب **التواريخ** قبل ما يقارب ثلاثة آلاف سنة، وكان وعيه اكتشافاً متزامناً لتنوع الزمن، أو بدقة أكثر لوسائل قياس الزمن. كيف نقيس الزمن، إذ يقيسه الفلاحون حسب الفصول، وأهل المدن حسب الأجيال، ومؤرخو الدول حسب طول مدة السلالات الحاكمة؟ كيف نقارن بين كل هذه التقديرات ونجد لها تسمية مشتركة؟ تلك هي المشكلة، الصعبة والملغزة [١١٠] التي يواجهها، والتي ينبغي أن يكون قد واجهها، كل أولئك الذين فهموا أهمية التقويم الأمثل لآلاف وآلاف الأحداث التي يتكون منها تاريخ البشر، وتقديرها حق قدرها.

هل خلق الله، خالق كل شيء في الأديان السماوية الثلاثة، العالم بوصفه مستداماً؟ جاء في التوراة:

ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً (التكوين، ١، ٣١).

ولكن الإنسان ما لبث أن عصى خالقه، وحينئذٍ أصبحت قضية استمرارية الخلق موضع شك.

فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض. وتأسف في قلبه. فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته، الإنسان مع بهائم وذبابات وطيور السماء لأني حزنت أني عملتهم". وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب... فقال الله لنوح: "نهاية كل بشر قد أتت أمامي! لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم، فها أنا مهلكهم مع الأرض. (التكوين، الإصحاح السادس، الآيات ٦ – ٨، ١٣).

ليس العالم المخلوق بالضرورة مستداماً، إنه لا يستديم ولا يقوم إلا بإرادة خالقه، شرط ألا يرتكب الإنسان المخلوق الذي يسكنه شراً، أي ألا يخالف النظام الذي أراده الخالق. لقد سمح حينئذٍ الطوفان الذي اجتاح الأرض خلال أربعين يوماً بإعادة تفعيل مستدام للعالم الذي أفسده الإنسان فأغرقه، وجعل استدامة العالم ممكنة. حينئذٍ أسس الله الاستدامة بين الزمن والخلود:

إن قلب الإنسان شرير منذ حداثته، ولا أعود أيضاً أميت كل حي كما فعلت. مدة كل أيام الأرض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء ونهار وليل لا تزال (التكوين، الإصحاح٨، الآيات ٢١ – ٢٢).

ولكن تلك الاستدامة هي في حد ذاتها غير محددة. فقد آلى الخالق على نفسه بعد الطوفان ألا ينزل النوائب بالأحياء، وهذا لا يعني مقتضاه خلودهم. وتبدو والحالة هذه مدة حياة الأرض مرتبطة بطريقة استخدام الإنسان لها؛ وبالتالي، بحرية فعل الإنسان "طالما استمرت الأرض"، وجرت الدلالة على تلك الاستمرارية عبْر دورة

الفصول والأيام التي كلما انتهت تبدأ من جديد، الدورة التي ليست التقدم، ولكنها تعين بالأحرى حاضر ما هو مستدام ومحتمل ومستمر، الحاضر حضوراً دائماً، ويتلو بعضه بعضاً.

ويؤكد القديس **أوغسطين** في القرن الرابع الميلادي أن الحاضر وحده هو الذي ليس بسبب للانفصال عن الماضي ولا للتميز من المستقبل. لأن العيش في الحاضر ليس هو العيش في اللحظة، إنه بالتحديد العيش في الاستدامة، وهذا ينبغي أن نطلق عليه عمداً استدامة وليس زمناً. الحاضر يستديم:

لا نحسن رؤية إلا ما هو كائن. والحال أن ما هو كائن من قبل ليس هو ما سيأتي ولكنه الحاضر... وإن ما يبدو لي واضحاً وبديهياً هو أنه لا وجود للماضي ولا للمستقبل... وربما نعبر عن ذلك بصيغة أوضح فنقول: حاضر الماضي، وحاضر الحاضر، وحاضر المستقبل[1].

يذكّر الزمن بجريان آلي واهتزازي، بتتابع لا يرحم من الخسائر والنسيان، وآماد قصيرة ليس بينها أي تماسك. وإنه لمن الفضول القول: إن الزمن يمر بسرعة نسبية، اعتماداً على كوننا تعساء أو سعداء، وإن هناك زمناً ذاتياً، هو زمن الوعي، وزمناً موضوعياً هو زمن ساعات الحائط. والفرار هو طريقة كينونة الزمن. وهذه المعرفة ليست واحدة، بل إنها تسبق كل شيء، كما يقول أيضاً القديس **أوغسطين** لأن وعينا هو زمني من أوله إلى آخره:

إذنْ، ما الزمن؟ عندما لا يسألني عن ذلك أحد، أعرفه؛ وما إن يتعلق الأمر بتفسيره فإنني لا أعرف ذلك[2].

---

(١) القديس **أوغسطين**، **اعترافات**، باريس، الحروف الذهبية، ١٩٨٩، الكتاب الحادي عشر، ١٨، ٢٤، حز ٣١٣؛ ى٢٠ و٢٦وحز ٣١٤.

Saint Augustin, Confessions, Paris, Les Belles Lettres, 1989, Livre XI, 18, 24, p. 313; 20, 26, p. 314.

(٢) القديس **أوغسطين**، م. س، **الكتاب الحادي عشر**، ١٤، ١٧، حز ٣٠٨.

[١١١] لقد ميز بوضوح الفيلسوف هنري برغسون Henri Bergson الزمن من الاستدامة. الاستدامة بوصفها معطى سابقاً للوعي، تشير إلى "استمرارية نوعية" تكوِّن فيها الأشياء المعيشة والمعكوسة الحاضر. إنها ليست مطابقة للتتابع، وليست خطية، فالحاضر الواعي هو في الوقت نفسه الحاضر والماضي. إن هذا الحاضر الذي يستمر هو حاضر حي، حاضر يتحرك، حاضر يتكيف. وإذا انفتح الحاضر على الماضي متعرفاً عليه، آخذاً إياه في الحسبان، واسما إياه بميسمه ومعدلاً إياه، إنه ينفتح خصوصاً على المستقبل: **إن الحاضر الخالص هو التقدم غير الملحوظ للماضي يأخذ بتلابيب المستقبل**[٣].

حينئذٍ تكون الاستدامة هي انبثاق جدة لا يمكن التكهن بها كالحياة وكالحرية.

ومنذئذ يبدو تقسيم الزمن إلى ثلاثة نطاقات، حسب تصور مكاني خالص يمتد كخط لا نهاية له من اليسار إلى اليمين، من الماضي ومن الحاضر ومن المستقبل، وهو التقسيم الذي سبق للقديس **أوغسطين** أن أنكره، هذا التقسيم يبدو باطلاً.

فلنستمر في القول: "هناك ثلاثة أزمنة، الماضي، والحاضر والمستقبل" لأن هذا الاستخدام المزعج أصبح عادة؛ نعم، لنقل ذلك؛ ولكن شرط أن نفهم ما نقوله، وأن لا نتخيل أن المستقبل كان من قبل، وأن الماضي ما زال كائناً...[٤]

إن ما يشكل قيمة الحاضر هي استدامته، وأنه الزمن الوحيد الذي له وجود وله معنى.

ولكن الاستدامة عند الأفارقة ليست حسب الصحفي الرحالة **ريزار كابوسينسكي** Riszard Kapuscinski لا يمكن تصورها إلا من حيث هي فعل إنساني، ووجود الزمن عبر الفعل الإنساني:

---

(٣) مادة، وذاكرة، ١٩٣٩، باريس، المطبوعات الجامعية الفرنسية، ٢٠٠٤م، ص١٦٧.

Henri Bergson, Matière et mémoire, 1939, Paris, PUF, 2004, p. 167.

(٤) القديس **أوغسطين**، م. س، **الكتاب الحادي عشر**، ٢٠، ٢٦، ص. ٣١٤.

إن الإنسان هو الذي يؤثر في تشكل الزمن، في سيرورته وفي إيقاعه (والمقصود بالطبع هو الإنسان الذي يتصرف برضى الأسلاف والآلهة). بل إن الزمن أمر يمكن للإنسان أن يصنعه، لأن وجود الزمن يتم التعبير عنه عبر حدث من ضمن صيغ تعبير أخرى. والحال أن الإنسان هو الذي يقرر إذا كان الحدث سيتحقق أو لا. الزمن هو نتيجة فعلنا، وهو يختفي عندما لا نبادر إلى فعل أو نتركه... الزمن كائن سلبي ومستقل عن الإنسان على وجه الخصوص. إن هذه الرؤية هي عكس الرؤية الأوروبية تماماً... إن سؤالنا: "متى سينعقد الاجتماع؟" هو سؤال لا معنى له. لأن الإجابة عنه معروفة من قبل: "عندما يجتمع الناس"(٥).

إن مفهوم التنمية المستدامة يجد هنا مطابقة جديدة.

٢- المدى القصير والمدى الطويل

2. le copurt terme et le long terme

إن إله الزمن الإغريقي وهو يرفض النبوءة اتخذ كل احتياطاته لكي لا يتعرض للخطر، وحرص على ألا يكون عليه أن يجعل فعله باستمرار سديداً، وعلى ألا يكون عليه أن يتوقع باستمرار، ولا أن يبتدع أحداثاً في عالم غير آمن. وقد كان ثمن هذا السداد يبدو له بلا شك مرتفعاً جداً، ولكنه في الواقع كان من منظور الاستدامة شرط استمرارية سلطته الشخصية. إن رفضه إمكانية التنوع أو اللاتوقعية، ورفضه السداد الذي كان عليه أن يحققه هو الذي جعل النبوءة حتماً مقضيا. لقد فسح ابنه زيوس المجال لتطور العالم عندما قيده. والأسطورة تعبر عن أن الاستدامة بما تمتلكه من لاتوقعية وأحداث، كما سبق لنا أن عرفناها، تعطي للتنمية قيمتها، مما يعني صلاحيتها أيضاً.

---

(٥) ريزار كابوسينسكي، خشب الأبنوس، مغامرات إفريقية، باريس، بلون، ٢٠٠٠م، ص ٢٤.

Riszard Kapuscinski, Ebéne, aventures africaines, Paris, Plon, 2000, p. 24.

[١١٢] إن الزمن هو في الحق المعطى الجوهري للتساؤلات المعاصرة على المدى القصير، وعلى المدى الطويل. وعندما لا يولي رجال الاقتصاد أهمية إلا لثنائي المخاطر والربحية، في حين يريد المستثمرون الواعون بالمتطلبات الجديدة "للتنمية المستدامة" أن يدرجوا في استثماراتهم "ذات المسؤولية الاجتماعية" معايير جديدة يبدو أنها أخلاقية خالصة، حينئذٍ، نحن مجبرون على أن نطرح على أنفسنا السؤال التالي: كيف يمكن للاستدامة أن تخفف المخاطر، أي أن تخفف التغاير واللاتوقعية، وتحسن ربحية المستثمرين الذين هم مؤسسات، وشركات وأفراد واعين بالمتطلبات الجديدة لمعاصرة العالم المعقدة؟

إن صعوبة مصطلح "قيمة" تكمن في تنوع المجالات التي يستمد منها دلالته. وينتمي مصطلح القيمة إلى المعجم المتخصص للميزات الفيزيائية والأخلاقية الشخصية، وقد شاع أن تعريف الشرعة الأخلاقية هو أنها نظام من القيم. وما نسميه "قيمة الحقيقة" تكمن في المواءمة بين الصالح والنافع. والقيمة في الاقتصاد هي أيضاً قيمة شيء ما، نقود هذا الشيء؛ إن عبارة gelten valoir، مرتبطة بـ Geld التي تعني النقود، والعملة، وGold هي الذهب أيضاً. ولكن العبارة الألمانية تعني أيضاً أن يكون للشيء معنى.

في أي جانب يمكن للاستدامة بوصفها قيمة أن تحسّن بالقدر نفسه وضعية المخاطر، بالتقليل منها، أي بتخفيض التغاير واللاتوقعية، ووضعية الربحية برفع قيمتها؟

إن الفرد والشركات مدفوعان في المدى القصير إلى أنواع الانقطاع والفصل والقطيعة في الزمان وفي المكان. والمساهم الصغير المتقاعد لا يفكر إلا في شيء واحد: بيع سهمه في المستقبل القريب ليحصل على عوائد تكفيه في تقاعده، على المدى القصير. إن التحليل المالي يميل في بعض الأحيان إلى أن يكون حبيس معايير التقويم التي تشجع النتائج على المدى القصير. حينئذٍ يصبح المدى القصير مهمشاً، يشبه المخدرات، منشطاً ثم ساماً، ثم مستبداً. وليس الحل بالتأكيد هو الهروب من الزمن: كتب المؤلف المسرحي الياباني **أكيو ميازاوا** Akio Miyazawa:

عندما لا ندري أين نذهب، وعندما لا يكون لدينا شيء نتعلق به فإننا بالطبع يشدنا الذهاب نحو مناظر الرمل الطبيعية.

إن ميازاوا الحريص حرصاً لا يقل عن حرص الغربيين على تفكك المعالم الزمنية في اليابان التي تعد ثقافتها الكونفوشيوسية ورؤيتها للزمن بعيدين كل البعد عن التقاليد اليهودية – المسيحية[٦]. يمكن للرؤية على المدى القصير، شأنها شأن الرمال المتحركة، أن تكون مدعاة للوهم. إنها رؤية يُعتَقد أنها تشبه السعادة: متقدة ومجردة، وقصيرة على الدوام. إنه (المدى القصير) يندرج في الفجائية التي تخفض أي تتابع أو تلغيه، ويُعتَقد أنه يلغي أي لاتوقعية ، وأي تغاير مرتبط بالتتابع.

والحال أن فن الحدائق التقليدية في اليابان، وهو يقوم، منذ القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، ثم في عصر النهضة، على إنشاء مجمعات تتناسق فيها الأشكال والألوان والأشجار والحجارة والماء والطين، كما يمكن أن نرى ذلك في "الإيماكي emaki" التي هي لفافات من الرسوم والخطوط التزينية، أو كما يمكن أن نرى ذلك أيضاً في حدائق ما زالت محفوظة حتى يوم الناس هذا، إن هذا الفن يدعو إلى التأمل مدة عام بطوله في العلاقات بين المكان والزمان. إن الحجارة أو الأدغال أو الأشجار أو آكام الرمل مرتبة فيها بطريقة يكون معها من المستحيل رؤيتها معاً في آن واحد، مما يولد لدى من يتأملها قناعة مؤكدة أنه لا يستطيع القبض على العالم بكليته. إن ما لا تراه العيون ينبغي أن يجده المتأمل في ذاته، ولن ينتهي ألبتة من إيجاده في ذاته لأنه لن يستطيع البتة القبض على العالم في جانبه المادي. إن التداخل الذي كُيِّف بقواطع متحركة بين داخل البيوت والحدائق هو بذلك تناسق مسؤول يسمح للكائن

---

(٦) دراسة مأخوذة من صحيفة أساهي شينبون، وأعيد نشرها في صحيفة كوريه أنترناسيونال، ٢٣ أبريل "نيسان" ١٩٩٤م. لوصحيفة أساهي شينبون: هي إحدى أشهر خمس صحف في اليابان. يبلغ عدد النسخ المتداولة منها حوالي ٨,٢٢ مليون نسخة. المترجم.

البشري بأن يعيش في تناغم مع تغيرات الضوء والطبيعة [١١٣] والفصول، وبأن يجد بذلك استدامته الحركية والحيوية الخاصة به. إن قيمة الاستدامة هي هنا أخلاقية وجمالية في آن معاً. ولا يمكن أن يكون المقصود منظراً طبيعياً من الرمل.

إن إله الوقت كرونوس، وهو يلتهم أطفاله خوفاً من أن يزيحه أحدهم عن العرش، وهو يتصرف على المدى القصير، لم يأخذ في الحسبان لا السماء ولا الأرض التي ينحدر منهما، وأنكر المستقبل بكل أشكاله: إنه يريد التحرر من الطبيعة ومن إيقاعاتها ليحافظ على سلطته التي تصبح منذ تلك اللحظة سلطة لا زمنية ولا معنى لها. وإذا أردنا التحديد فإن التفكير في التباين بين المدى الطويل للطبيعة وبين المدى القصير، وهو تباين يتسم بأنه تقني وسماً، وتأجيلي زعماً، يقود إلى تساؤل لا سابق له: كيف نبني ثقافة المسؤولية بين المخاطر والربحية؟ إن العتبات التي إذا تجاوزناها تنشأ عند تجاوزها على المدى القصير المتفاوت في قصره (هذا نسبي) أوضاع تمس البيئة، ولا يمكن العودة عنها، مثل حالات التلوث الخطيرة، وتجفيف البحيرات، وإزالة الغابات، ... إلخ. تلك العتبات كانت مؤشرات للبدء في تفكير أكثر شمولاً، تفكير اجتماعي ومجتمعاتي[٧].

هل سيكون المدى القصير في التمويل قيمة؟ فخلال خمس سنوات ينبغي على المساهم الصغير أن يبيع سهمه لآخر، وهذا الآخر نفسه سيود شراء القيمة المستدامة للسهم. ولا يمكننا ألبتة نسيان مفهوم الخلود الذي هو الجانب الخفي في المفهوم الأمريكي: **قلق الفناء**[٨]: الشركة تستديم، شأنها شأن الدول، بل إن لديها نزعة

---

(٧) Sociétale= مصطلح من مصطلحات التنمية المستدامة، ويشير إلى مسؤولية رجل الاقتصاد فيما يخص النتائج الاجتماعية والبيئية لنشاطاته على الأطراف المشاركة. وعند الحديث عن الشركات يتحدث المختصون عن المسؤولية الاجتماعية - البيئية للشركات. كما أن الدراسات البيئية السياسية تأخذ هذا المفهوم في الحسبان. [المترجم]

(٨) *going concern*.

للاستمرارية، للاستدامة أبدياً. وإنه لمن الدال في هذا السياق أن مؤسسي الشركات يشيرون على الدوام في الأوراق الرسمية لإنشاء الشركات أن استدامة الشركة هو ٩٩ عاماً. والحال أن الجميع يعلم أن قليلاً من الشركات تستمر لأكثر من قرن لأن آخرين يشترونها أو تختفي، وتندرج في سيرورة **الهدم الخلاق**[٩] التي ألقى الضوء عليها **جوزيف شومبتير**[١٠] Joseph Schumpeter. هناك بالتأكيد استثناءات مثل شركة **سان – غوبان** saint - Gobin، أوشركة **شنايدر** Schneider التي أصبحت **شنايدر إليكتريك**، أو شركة **ويندل** Wendel، ولكن ذلك حصل بفعل تحولات جذرية في تلك الشركات.

وإنه لمن الملاحظ أنه على الرغم من منظور "المدى – القريب" المنتشر اليوم فإنه لم يكن هناك قط رؤوس أموال خاصة تستثمر في الشبكة الصناعية، وفي الطاقات البديلة، ... إلخ. مثل ما هي عليه اليوم، ولم يكن هناك مثل هذا القدر من المهن ذات المخاطر، التي لها مردود بطيء كل البطء. إلا أن ما يختلف على أي حال هو البحث عن سيولة فورية: يود المستثمرون الخروج في أي لحظة من استثمارهم ويبيعون لمستثمر آخر فكرة نجاح المشروع على المدى الطويل. إن شفافية المعلومات المالية التي تولد الثقة عندما تعرف بالمخاطر هي إذنْ شرط من شروط حالة أن يؤخذ في الحسبان في آن معاً المدى القصير والمدى الطويل. إنها تعمل على ألا يخاف مسؤولو المحاسبة من المستقبل البعيد.

إن لمفهوم المدى الطويل علاقة بما يسميه **برغسون** "الاستدامة العضوية"، أي كل العناصر التي تشكل جزءاً من المعرفة بالإضافة إلى الذاكرة والتجربة المعيشة والتخييلات والأحاسيس. إن لها علاقة إذاً مع الحاضر الذي يستديم، المنفتح دائماً على ماضٍ وعلى مستقبل. لا شيء يموت إلا الحي، ولا شيء لا يتغير ولا يتكيف إلا الواقع. والاستدامة هي في جانب التغيير والتكيف ودورات الولادة، موت الطبيعة

---

(٩) *Destruction créatrice*= الهدم الخلاق: وهو الإجراء الذي يختفي بموجبه نشاط اقتصادي معين بالترافق مع ولادة نشاط اقتصادي جديد. [المترجم]

(١٠) عالم اقتصاد نمساوي (١٨٨٣ – ١٩٥٠م)، صاحب مجموعة من النظريات الاقتصادية. [المترجم]

والبشر وولادتهم، إنها في جانب الرابط الاجتماعي. لقد تطورت الحضارات وتكيفت وتعقدت إبان آلاف السنين؛ لقد كانت بحاجة إلى الصدمات والمواجهات لتبني نفسها. إن مسيرة الفكر كما تجري في الاستدامة، في المدى الطويل هي أكثر غنى وأكثر سلاسة وأكثر تعقيداً بما لا نهاية له من التتالي المجزأ الذي لا تستطيع التخلي عنه آلاتنا الإليكترونية. وإنه لمن المهم أن نحكم على نضج حالة من الحالات، وعلى التحقق المتدرج لثقافة أو فكر، على نضج البشر بأن لا نشجع لا المزج ولا التصادم. لقد كان ذلك النضج بحاجة إلى أزمات ما تزال ماثلة قليلاً أو كثيراً في وعي الثقافات، مثل أزمة المزايدة على زهر الخزامى[١١] في القرن السابع عشر في هولندا، وأزمة السكك الحديدية في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر[١٢]، أو فقاعة الإنترنت في امتدادها غير المتساوي بين عامي ١٩٩٨م و٢٠٠٠م.

[١١٤] إن كل ماضٍ يعد في عالم التمويل معروفاً معرفة كاملة، ومأخوذاً في الحسبان، والمستقبل وحده هو المهم. من ذا الذي يستطيع الزعم زعماً قاطعاً بأنه رأى الحاضر يختفي؟ ونحن لا نستطيع الانصراف بكليتنا إلى العمل ولا الاستثمار في أي زمن آخر إلا في الحاضر، بأن نتحمل المسؤوليات في حاضر المجتمعات والعالم. وتلاحظ الفيلسوفة سيمون فيّ Simone Weil (١٩٠٩ - ١٩٤٣م):

أن الكائن البشري يتحصل على نسب عبر مشاركته الواقعية، الفاعلة والطبيعية في إيجاد مجتمع يحفظ على قيد الحياة بعض ثروات الماضي وبعض المشاعر المسبقة بالمستقبل[١٣].

---

(١١) ارتفاع أسعارها ثم انخفاضه المفاجئ في منتصف القرن السابع عشر. [المترجم]

(١٢) في عام ١٨٨٤م بالتحديد. [المترجم]

(١٣) سيمون فيّ، التأصيل، توطئة لإعلان بالواجبات نحو الكائن البشري، ١٩٥٠م، باريس، غاليمار ١٩٤٩م، القسم الثاني "الاجتثاث"، ص٣٦.

Simone Weil, L' enracinement –prélude à une déclaration des devoirs envers l' être humain, 1950, Paris, Gallimard, 1949. Deuxième partie "Le déracinement", p. 36.

إن كل كائن بشري، لأنه كائن اجتماعي، هو في حاضره متجذر في حاضر يستديم، يمتد بعيداً، أي إلى ما لا نهاية له، حتى إن المستقبل يتفق مع الماضي، وتسمح له الاستدامة بأن يعيش الثنائية الصينية الخصبة بين **الكيو** qiu **واللاو** lao، بين ما هو شائخ ومتجاوز وما هو ناضج، ويمنحه الزمن قيمة هذه المزايا إلى ما لا نهاية. إن قيمة سهم ما اليوم ليست أمراً آخر غير مجموع أرباحه المستقبلية إلى ما لا نهاية. وينبغي على العمليات المالية أن تتوقع ذلك المجموع مع تحيينه وتكييفه.

إن الزمن أو الاستدامة هو المال كما يقول المثل الشعبي[١٤]. وتقودنا الاستدامة في العمليات المالية إلى نعيد تأطير أنفسنا في النمط النظري لتقويم الأصول المالية التي تتمثل في أن يؤخذ في الحسبان امتداد الأرباح إلى ما لا نهاية. إن الرؤية على المدى القصير لا تأخذ أو لم تعد تأخذ اللا نهاية في الحسبان.

إذا كانت الثقافة ذلك العنصر الحيوي، ذلك التدفق الحيوي الذي تتشكل عبره السلوكيات الجماعية التي تتحكم بقدرات البشر على المبادرة، ذلك النضج، وذلك الحاضر الذي يمتد إلى ما لا نهاية، أليس ذلك ما تشير إليه تلك الستارة في مكتبات **اليابان** في القرن السادس عشر؟ المطلية بالأسود مع موتيفات مذهبة على خلفية الستارة الذهبية، مما يذكر بالخلفيات الذهبية للأيقونات المقدسة في **الهند** وفي البلاد المسيحية. تعرض تلك المكتبات **اليابانية** كتباً ولفافات ذات ألوان فاقعة، تستسلم للنظر، وتعرض نفسها للاكتشاف، إنها أشياء هادئة من أجل هدوء النفس التي تنعم بها إلى ما لا نهاية حاضر حي ويستديم.

---

(١٤) الوقت هو الحياة، وهذا معنى مشترك يعرفه الناس جميعاً، ولكن الإسلام زاد على ذلك المعنى حين جعل الوقت بمثابة رأس مال يحاسب عليه الإنسان؛ إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم": لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه. [المترجم]

٣- الخيار المستدام

3. le choix durable

لقد أولع **الإغريق واللاتينيون** بما هو على وشك الحدوث، وبالتطور تطوراً ضخماً في المكان وفي الاستدامة، ومن هنا جاءت أسطورة **كرونوس** التي سبق الحديث عنها، ومن هنا جاء مفهوم اللحظة، الـ tò nûn **الأرسطوطاليسية** التي تسمى momentum **باللاتينية**، ولعلنا لاحظنا الربط الوثيق بين اللحظة والحركة باللاتينية momentum et movimentum. ما اللحظة؟ إنها بالتحديد الدقيق الكمية الصغيرة التي تجعل الميزان يميل إلى جهة ما حسب **أرخميدس** Archiméde. إن هذه "الكمية الصغيرة" ليست بعيدة عن حركة جناح الفراشة في **البرازيل، التي تتحول إلى زوبعة في تكساس.** وهي ظاهرة وضحها عالم الأرصاد **إدوارد لورانز** Edward Lorenz، وتتمثل في سرعة التأثر القصوى على المدى الطويل بالتغيرات التي تكون في البدء صغيرة. يمكن لتبدل بسيط كل البساطة لعنصر ما أن يتسع بالتدريج حتى يسبب تغيرات جذرية إبَّان قدر معين من الاستدامة. ويرتبط بمفهوم اللحظة مفهوم **الكيروس**[١٥] الذي هو لحظة السعادة، اللحظة المناسبة، كل استدامة حاسمة ينبغي أن نعرف كيف نختارها، الاختيار المستدام الذي هو أيضاً الـ **كي شي**[١٦] **في التقليد الصيني.** إن موضوع الحوار هنا هو أهمية الحدث الأول بوصفه اختياراً مستداماً. إن الاستدامة تبعاً لاختيار مستدام، والتزام ومستدام، مهما كان بسيطاً في البداية، تنويع المخاطر، اختيار السياسات الجديدة، وإرساء أسسها بالتدريج، في إدارة الشركة على سبيل المثال، تبعاً لكل هذا ستستطيع الاستدامة إيجاد قيمة، تكون هي نفسها قيمة: اقتصادية [١١٥]

---

(١٥) *Le kairos*= **مفهوم الكيروس**: هو زمن اللحظة المناسبة، الزمن الذي يصف لحظة ما. إنه نقطة الانقلاب في الرياضيات، ونقطة الانقطاع في اتجاه أو آخر في الفيزياء انطلاقاً من مركز دوران هو في حركة دائمة. يقول عنه أوريبيدوس *Euripide*: "إنه أفضل دليل في المشروعات البشرية". [المترجم]

(١٦) *qi shi*.

وأخلاقية. وهنا يتدخل الممول ؛ وليس من وظيفته إزالة المخاطر، ولكنه ربما يستطيع تحديد ما المخاطر الذي يمكن ركوبها من أجل الحصول على مستوى معين من العائدية. لا نفارق الحاضر، الحاضر يستديم، بمحتويات هي بالتأكيد مختلفة، ولكنه مع ذلك لا يني يكون حاضراً. ويؤكد مؤسس **الطاوية**، الحكيم **لاو تسو** Lao Tseu أن "الموت بلا اندثار هو الحياة الطويلة". ومن المنظور نفسه يعرف فيلسوف آخر **فرانسو شينغ** Francois Cheng الخلود بأنه "مصنوع من برهة حاسمة تنطلق فيها الحياة نحو ما لا تعرف نتائجه"(١٧).

إنه لمن الغريب أن يكون لمفهوم الاستدامة، بوصفها قيمة، وتقلل من نسبة المخاطر عبر الاختيار، تأثير على مفهومي المخاطر والربحية إذا أوجدت ظروفاً مناسبة لكل أولئك الذين لهم مصالح في الشركة. وآية ذلك أن بناء شركة مستدامة يفترض السيطرة على ضياع المردود، بل تخفيض نسبته، دون نسيان أن المقصود بذلك ليس إزالة المخاطر، لأن ذلك يعني إزالة القرار الشخصي وبالتالي الشركة. وإن بناء شركة مستدامة يفترض أيضاً رفع قيمة الموارد. والمقصود بذلك فهم انعدام التوازن وإدارته، من أي نوع كان، بيئي، واجتماعي، و اجتماعي بيئي واقتصادي، ما دام هناك مظاهر انعدام توازن أولية، بل إن المقصود بدقة أكثر هو توقع الأوضاع غير المؤكدة. إن الممولين يسعون إلى تصميم ظواهر ما زالت قوانينها غامضة. ويعدلون باستمرار نماذجهم حسب المعطيات الجديدة لكي يتخذوا احتياطاتهم في كون سمته الجوهرية عدم الأمان. وهذا ما عزف عن فعله إله الزمن الإغريقي.

إنهم منظرون حقيقيون للفوضى، يصفون الأنظمة غير المستقرة، ويحاولون عقلنة الأسواق المالية. إنهم يستخدمون نماذج الاحتمالات، إنهم اختصاصيو الاحتمالات، وغير المؤكد والانتقالية والتكيف. هل يمكن للاستدامة أن تقلل من

---

(١٧) فرانسوا شينغ، **خمسة تأملات في الجمال**، باريس، ، ألبان ميشيل، ٢٠٠٦م، ص٥٠.

Francois Cheng, Cinq méditations sur la beauté, Paris, Albin Michel, 2006, p. 50.

حالات التردد؟ إن الماضي والمستقبل ليسا مما يمكن حسابه وقياسه، لأننا لا نقيس إلا الحاضر. وربما يتمثل توقع حالات التردد في أن نرى في آن معاً في السماء سواء كانت صاحية أو مغطاة بالغيوم، في حاضر يستديم، في زمن مستمر هو زمن لم تعد تُضفى عليه سمة السرية[١٨]، ولنقل في الاستدامة، نرى فيها سماء ممطرة تسمح فيها العواصف مؤقتاً ببعض التسربات المستمرة نحو مناطق بعيدة تقرعها الشمس. إن الاستثمار المسؤول اجتماعياً الذي يدعي الانتساب إلى التنمية المستدامة، ويدعي أنه يتضمن اعتبارات اجتماعية ومجتمعاتية، وبيئية، يختار أن يلقي بنظره على ما وراء التحليل المالي الضيق الذي يغريه أن يجني فائدة على المدى القصير، وبعيداً عن المنطقة التي هي منطقة السماء الممطرة فقط أو الصاحية فقط. ما يهمه هو إدراك واقع شركة ما في كل تعقيداتها واستمراريتها في سماء تغطيها الغيوم أو في تسرب نحو النور، وكل ذلك مترافق مع تلك العناصر غير الملموسة كالصورة، والسمعة، ومنح البشر قيمة... ضمن معايير مرتبطة بالمدى الطويل. إن ذلك الاستثمار المؤسس على الاستدامة بوصفها قيمة يختار المزاوجة بين الاقتصاد والأخلاق.

إن ممارسة الاستثمار المسؤول اجتماعياً لأننا نهدف إلى الاستدامة، إلى التنمية المستدامة أو المحتملة، بوصفه أمراً لازماً لبناء شركة مستدامة ربما يمكن أن يتمثل في معرفة طريقة مواجهة المخاطر المحمودة، المخاطر اللازمة للتنمية ولاستدامتها/ واحتماليتها، لكي نكسب الغد. بذلك نستطيع إعادة تقويم مفهوم المخاطر "المخاطر بوصفها حاجة جوهرية للروح"، حسب عبارة مهمة لسيمون فيّ. إن المعيار الأخلاقي عندما ينضوي تحت لواء لعبة المخاطر والربحية يجعل للاقتصاد من الآن فصاعداً، شأنه شأن السياسة والأخلاق، علاقة مع لغز الوجود الذي يتمثل فيما يكون به المظهر الخالد وغير المشروط والكوني لالتزامات كل فرد مهماً لديه في الظروف الاستثنائية.

---

(١٨) discrétisé.

إن الاستدامة في مواجهة الإجراء المزدوج لنشر العولمة والديمقراطية أيضاً تفترض تضامناً أفضل. ولن يكون التضامن فرضاً مرتبطاً بالفضيلة حصراً [١١٦]، إنه إجراء رابح مرتبط بنظام القيمة الجديد الذي هو الاستدامة. لماذا؟ لأن الكائن البشري لم يعد مجرد مورد، ولكنه شخص فاعل، كامل الفاعلية، قدرة اقتصادية وثقافية ووجدانية رائعة كامنة، ضمن علاقات متجددة بالعالم وبالآخرين. إن الاستدامة بوصفها قيمة اقتصادية وأخلاقية تقدم للجميع فرصاً خارقة للعادة، مؤسسات وشركات وأشخاص. ويلحق الممول هنا بالفيلسوف.

والسؤال الذي يطرح نفسه حينئذٍ هو التالي: ما الثمن، ومن أجل أي نتيجة؟ إن التنمية المستدامة أو المأمولة تتمثل في السعي عبر مسيرة المدى الطويل إلى توفير صفة الانسجام المتدرج المرتبط بقضايا البيئة والمجتمع وإدارة الشركة. والثمن هو بالتأكيد باهظ: في الجانب الفكري، وفي إرساء أسس سياسات جديدة، وفي تغيير المناهج والمعايير، وإعداد الأشخاص. ولكن النتيجة هي أكبر أيضاً. يكتب **فرانسوا شينغ** أيضاً

على صورة نغم لا يتشكل من مجرد إضافة علامات موسيقية إلى بعضها، وكل علامة تكون فيه منسابة من السابقة وتنوع التالية... كل مكونة تترك المكونات الأخرى تسمها بميسمها، تاركة هي ميسمها على المكونات الأخرى[١٩].

إن المقصود هو "إضفاء القيمة على رأس مال بشري"، لكي نقتبس عبارة أثارت الاعتراض، عبارة قديمة ولكنها ما زالت تستخدم، استخدمها **غاري بيكر** Gary Becker الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد عام ١٩٦٤م، رأس مال بشري يسمح بزيادة الإنتاجية، وبالتالي النمو الاقتصادي والعائد، وبلا شك الحياة الهانئة للشخص البشري الذي يمتلكه، وهذا يحيل إلى زيادة المال العام. المال والأخلاق

---

(١٩) **فرانسوا شينغ**، م.س، ص٥١.

يعيشان جنباً إلى جنب. وليس هناك "إضفاء قيمة على رأس المال البشري" لا تتطلب من الآن فصاعداً ضرورة ارتباط المعرفة والملكية والكائن. ربما يكون هناك من الآن فصاعداً حتم مقضي جديد، كما ذكّر بذلك مؤخراً الفيلسوف فرانسوا إيوالد[٢٠] Francois Ewald: **تصرف بطريقة تجعل من الاستدامة أقصى ما يمكنك فعله.**

(٢٠) مثقف فرنسي، ولد عام ١٩٤٦م، دكتور في الآداب تلقى تأهيلاً فلسفياً، وكان مساعداً لميشيل فوكو، وهو اليوم أستاذ في الكونسيرفاتوار الوطني للفنون والمهن. وتنصب أعماله حول سياسة المخاطر. [المترجم]